ملامح النظرية السياقية بين العرب القدامى والغربيين

قراءة في جهود سيبويه وابن جني وعبد القاهر الجرجاني ومالينوفسكي

أ.د.عبد الحميد بوفاس

جامعة المجاهد عبد الحفيظ بوالصوف ميلة

لقد أشار النحاة والبلاغيون العرب إشارات لا تقل أهمية عمّا وصل إليه الغربيون من نظرية مستقلة ، عرفت بالنظرية السياقية. ولذلك سنشير إلى بعض المباحث التي كشفت عن ذلك الوعي بالظروف المؤثرة في الكلام ، وتعلق الدلالة بشخصية المتكلم أو زمان التكلم ، إضافة إلى خصائص التركيب اللغوي وما يتميز به من أحوال كالذكر والحذف أو التقديم والتأخير أو التعريف والتنكير أو البناء للمعلوم والبناء للمجهول أو التأكيد والتكرير، وما يصاحب الكلام أيضا من ينى فوق لغوية أو ما يعرف بالنبر والتغيم.

وعليه فإن الدلالة تتنوع وتتعدد بتنوع السياق ، ولا يمكن أن نفهم الدلالة المحققة إلا بفهمنا عناصر السياق الواردة فيه .

1-ابن جني أبو الفتح عثمان :

يذهب ابن جني في كتابه الخصائص في باب أن المحذوف إذا دلت الدلالة عليه كان في حكم الملفوظ به إلا أن يعترض هناك من صناعة اللفظ ما يمنع منه ، فيقول :" من ذلك أنّك ترى رجلا قد سدّد سهما نحو الغرض ثم أرسله، فتسمع صوتا فتقول : القرطاس والله، أي أصاب القرطاس. فـ(أصاب) الآن في حكم الملفوظ به البتّة ، وإن لم يوجد في اللفظ، غير أنّ دلالة الحال عليه نابت مناب اللفظ به." [i]

فالمتكلم قد شاهد الظروف التي تمت فيها عملية التسديد ، وهي بغرض إصابة القرطاس ، ومنه فتلك الحالة قد أغنت المتكلم عن ذكر لفظ أصاب ، لأنه يصير من باب الزيادة غير المحببة .

2-سيبويه : (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)

قال سيبويه :" قولك إذا كنت تحذر : إيّاك، كأنّك قلت : إياك نح، وإياك باعد، وإياك اتق،وما أشبه ذلك...ومن ذلك، رأسه والحائط... وإنّما حذفوا الفعل في هذه الأشياء حين ثنوا لكثرتها في كلامهم واستغناء بما يرون من الحال وبما جرى من الذكر." [ii]

إنّ ما تمّ حذفه في التراكيب السابقة التراكيب السابقة قد دلّ عليها المقام ." ومن عناصره هنا أن الموقف موقف تحذير ، يضاف إلى هذا كل المعلومات المشتركة بين المتكلم والمخاطب من كثرة هذه الأساليب فكأنها جرت المواضعة عليها ، وكذا (ما يرون من الحال)، وهذه الحال هي الموقف الكلامي، وهو هنا موقف تحذير أشار إليه سيبويه بقوله: إذا كنت تحذر." [iii]

3-عبد القاهر الجرجاني :

يؤكد عبد القاهر الجرجاني أن لا معنى لتفاضل الكلمات من غير النظر إلى السياق الواردة فيه ، حيث يقول : " وهل يقع في وهم – وإن جهد- أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم ... وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها."[iv]

-برونيسلو مالينوفيسكي : b. malinowski

وتأتي أفكار مالينوفسكي في الإشارة إلى مصطلح سياق الموقف الذي تبناه تلميذه فيرث (firth) . ويمكن تعريف سياق الموقف على أنه " البيئة غير اللغوية non (linguistic envirnment) التي تحيط بالخطاب وتبيّن معناه. "[v]

وتشمل تلك البيئة : زمن التحدث ومكانه، والعلاقة بين المتحادثين، والقيم المشتركة بينهما والكلام السابق للمحادثة . ويمكن إضافة ما يحيط بالكلام من ظروف وملابسات.[vi]

وقد أدخل مالينوفسكي فكرة سياق الحال أو الموقف في الدراسات اللغوية " انطلاقا من الإشكالات الترجمية التي صادفها في جزر التروبر ياند trobriond جنوبي الباسفيك. فقد عايشها وهو يدرس ثقافتهم ما بين (1914 -1918) فاستنتج أن الترجمة تبقى عاجزة عن نقل المعنى ما لم يقترن كلّ ذلك بوصف تقاليد وثقافة المجتمعات ، وبالتالي الإحاطة بالموقف." [vii]

ويشير أحمد مختار عمر إلى فضل مالينوفسكي على فيرث في تطوير فكرة سياق الموقف ، حيث يقول : " وقد ذكر ليتش leech أنّ فيرث firth تأثر في نظريته السياقية بالأنثروبولوجي البولندي المولد b.malinowski الذي عرف عنه- في دراسته للدور الذي [تؤديه] اللغة في المجتمعات البدائية- أنه يعالج اللغة كصيغة من الحركة ، وليس كأداة للانعكاس. اللغة في حركتها ، والمعنى كما يستعمل ، يمكن أن ينظر إليهما على أنهما شعار مزدوج لمدرسته الفكرية." [viii]

ولعلّ فكرة سياق الموقف أو الحال لم تكن غائبة غي الفكر البلاغي العربي القديم ، فقد أشار كل من بسر بن المعتمر والجاحظ وابن هلال العسكري والسكاكي والقزويني، وغيرهم كثير إلى فكرة المقام التي ارتبط بها سياق الموقف أو الحال، في إشارات فير قليلة إلى أن لكل كلام أغراض ومقاصد ، وللكلام مقامات ، كمقامات الذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والتعريف والتنكير وغيرها، كما للكلام مقامات أيضا أو أحوال منها المدح والذم

والفخر والتعظيم والتحقير ، وغيرها من المقاصد التي يراعى فيها أحوال السامعين ومراعاة الظروف التي يقال فيها الكلام وكذا الزمان الذي ينتج فيه الخطاب.

ولذلك نجد تمام حسان يشير إلى أن مصطلح سياق الموقف الذي استعمله مالينوفسكي ، قد استعمله العرب قديما ، ويتضح لنا ذلك في قوله :"وحين قال البلاغيون لكل مقام مقال، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام، وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كلّ اللغات لا في العربية الفصحى فقط، وتصلحان للتطبيق في إطار كلّ الثقافات على السواء، ولم يكن (مالينوفيسكي) وهو يصوغ مصطلحه الشهير (سياق الحال) context of situation يعلم أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها." [ix]

وإن كانت تلك إشارات لسبق العرب لفكرة سياق الحال أو الموقف ، فغنها لم ترد في نظرية مستقلة ، بقدر ما جاءت في ثنايا الحديث عن البلاغة والفصاحة أو أبواب في النحو العربي.

---

[i]- ابن جني : الخصائص ، تح : عبد المجيد هنداوي، ج(1)، ط(02)، دار الكتب العلمية ، بيروت، 2003م، ص/293.

[ii]– سيبويه: الكتاب ، تح : محمد عبد السلام بن هارون، ط(3)، مكتبة الخانجي ، القاهرة، 1988 م، 273/1.

[iii]– مسعود بودوخة : السياق والدلالة ، ط(1)، بيت الحكمة للنشر والتوزيع ، العلمة ، الجزائر ، 2012 م، ص/91.

[iv]– عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ط(2)، تح : محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي ، القاهرة، 1989 م ، ص/44.

[v]– عرفات فيصل المناع : السياق والمعنى في أساليب النحو العربي، ط(1) ، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2013م، ، ص25.

[vi]– المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[vii]– سامية بن يامنة : سياق الحال في الفعل الكلامي ، رسالة دكتوراه، إشراف : أحمد عزوز، جامعة وهران ، قسم اللغة العربية وآدابها، 2011–2012 م، ص/92.

[viii]– أحمد مختار عمر : علم الدلالة ، ص/71.

[ix]– تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983 م، ص/372.